

(٧٧٣)

هدايات القرآن

في قصة موسى و فرعون

من تفسير السعدي

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

١-"﴿ ٤٩ - ٥٧ ﴾ ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال: ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ أي: من فرعون وملئه وجنوده وكانوا قبل ذلك ﴿ يسومونكم ﴾ أي: يولونهم ويستعملونهم، ﴿ سوء العذاب ﴾ أي: أشده بأن كانوا ﴿ يذبحون أبناءكم ﴾ خشية نموكم، ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ أي: فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة، مستحيي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم.

﴿ وفي ذلكم ﴾ أي: الإنجاء ﴿ بلاء ﴾ أي: إحسان ﴿ من ربكم عظيم ﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

ثم ذكر منته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده، أي: ذهابه.

﴿ وأنتم ظالمون ﴾ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرما وأكبر إثما.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضا فعفا الله عنكم بسبب ذلك ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ الله.

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ وهذا غاية الظلم والجراءة على الله وعلى رسوله، ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ إما الموت أو الغشية العظيمة، ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ وقوع ذلك، كل ينظر إلى صاحبه، ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ .

ثم ذكر نعمته عليكم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق، فقال: ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك.

﴿ والسلوى ﴾ طائر صغير يقال له السماني، طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم [ص ٥٣] ويقيتهم ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي: رزقا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين، فلم يشكروا هذه النعمة، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿ وما ظلمونا ﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين،

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فيعود ضرره عليهم.". (١)

٢-"﴿ ٧٨ ، ٧٩ ﴾ ثم قال: ﴿ .... وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾.

يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم أنهم إذا جاءتهم حسنة أي: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿ هذه من عند الله ﴾ وأنهم إن أصابتهم سيئة أي: جدب وفقر، ومرض وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿ هذه من عندك ﴾ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما تطير أمثالهم برسل الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ .

وقال قوم صالح: ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ .

وقال قوم ياسين لرسلهم: ﴿ إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ الآية. فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم. وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه فهو داخل في هذا الذم الوخيم. قال الله في جوابهم: ﴿ قل كل ﴾ أي: من الحسنة والسيئة والخير والشر. ﴿ من عند الله ﴾ أي: بقضائه [ص ١٨٩] وقدره وخلقه. ﴿ فما لهؤلاء القوم ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة. ﴿ لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ أي: لا يفهمون حديثا بالكلية ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهما ضعيفا، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك.

وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببا لشر يحدث، هم ولا ما جاءوا به لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿ فمن الله ﴾ هو الذي من بها ويسرها بتيسير أسبابها. ﴿ وما أصابك من سيئة ﴾ في الدين والدنيا ﴿ فمن نفسك ﴾ أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر.

فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ على أنك

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٢

رسول الله حقا بما أيدك بنصره والمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ فإذا علم أن الله تعالى كامل العلم، تام القدرة عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصرا عظيما، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.". (١)

٣-"﴿ ٢٠ - ٢٦ ﴾ ﴿ وإذ قال **موسى لقومه** يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ .

إلى آخر القصة (١) . لما امتن الله على **موسى وقومه** بنجاتهم من **فرعون** وقومه وأسرهم واستبعادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواليه، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم **موسى عليه** السلام؛ وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم: ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ بقلوبكم وألسنتكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

﴿ وآتاكم ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿ ما لم يؤت أحدا من العالمين ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ .

أي: المطهرة ﴿ التي كتب الله لكم ﴾ فأخبرهم خبرا تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم. ﴿ ولا ترتدوا ﴾ أي: ترجعوا ﴿ على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ قد [ص ٢٢٨] خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وآخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتم -بمعصيتكم- من العقاب، فقالوا قولا يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله.

﴿ يا **موسى إن** فيها قوما جبارين ﴾ شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

﴿ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعدا خاصا.

﴿ قال رجلان من الذين يخافون ﴾ الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. ﴿ أنعم الله عليهما ﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

---

(١) تفسير السعدي ص/١٨٨

﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمراهم بعدة هي أقوى العدد، فقالا ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن في التوكل على الله –وخصوصا في هذا الموطن– تيسيرا للأمر، ونصرا على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين:

---

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله: "فلا تأس على القوم الفاسقين".". [١]

٤-"﴿ ١٠٣ - ١٧١ ﴾ ﴿ ثم بعثنا من بعدهم **موسى بآياتنا** إلى **فرعون** وملئه ﴾ .

إلى آخر قصته (١) .

أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل **موسى الكليم**، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبابرة، وهم **فرعون** وملؤه، من أشرافهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿ فظلموا بها ﴾ بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها. ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بئس الرفد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله:

﴿ وقال **موسى** ﴾ حين جاء إلى **فرعون** يدعوه إلى الإيمان.

﴿ يا **فرعون** إني رسول من رب العالمين ﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

---

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.". [٢]

٥-"فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق. فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر.

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصا وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان. إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي **موسى عليه** الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له **فرعون**: ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ .

---

(١) تفسير السعدي ص/٢٢٧

(٢) تفسير السعدي ص/٢٩٩

﴿ فألقى ﴾ موسى ﴿ عصاه ﴾ في الأرض ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أي: حية ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها.

﴿ ونزع يده ﴾ من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

فلهذا ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ أي: ماهر في سحره.

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه ﴿ يريد ﴾ موسى بفعله هذا ﴿ أن يخرجكم من أرضكم ﴾ أي: يريد أن يجليكم (١) عن أوطانكم ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس.

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿ أرجه وأخاه ﴾ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المدائن أناسا يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى.

﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ .

وقال هنا: ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا ف ﴿ قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ ؟

ف ﴿ قال ﴾ فرعون: ﴿ نعم ﴾ لكم أجر ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى.

فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿ قالوا ﴾ على وجه التألي وعدم [ص ٣٠٠] المبالاة بما جاء به موسى:

﴿ يا موسى إما أن تلقي ﴾ ما معك ﴿ وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ .

ف ﴿ قال ﴾ موسى: ﴿ ألقوا ﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿ فلما ألقوا ﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾ فألقاها ﴿ فإذا هي ﴾ حية تسعى، ف ﴿ تلقف ﴾ جميع ﴿ ما يأفكون ﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿ فوقع الحق ﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ .

﴿ فغلبوا هنالك ﴾ أي: في ذلك المقام ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿ وألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾

أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

(١) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.". (١)

٦-"ف ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ فرعون ﴾ متهددا على الإيمان: ﴿ آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾ كان الخبيث حاكما مستبدا على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ وقال هنا: ﴿ آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ علي.

ثم موه على قومه وقال: ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلبوا له، فيظهر فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ما أحل بكم من العقوبة.

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿ ثم لأصلبنكم ﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿ أجمعين ﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

فقال السحرة، الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿ وما تنقم منا ﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿ إلا أن آمنا ﴾ بـ[آيات] ربنا [لما جاءتنا] (١) فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ ربنا أفرغ ﴾ أي: أفض ﴿ علينا صبرا ﴾ أي: عظيما، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير.

﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ أي: منقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

(١) تفسير السعدي ص/٢٩٩

هذا **وفرعون** وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلما وعلوا، وقالوا **لفرعون** مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿ أتذر **موسى وقومه** ليفسدوا في الأرض ﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿ قال ﴾ **فرعون** مجيبا لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع **موسى بحالة** لا يمنون فيها، ويأمن (٢) **فرعون** وقومه – بزعمه – من ضررهم: ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ أي: نستبقيهن فلا نقتلهن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من **فرعون** والعتو والقسوة.

ف ﴿ قال **موسى لقومه** ﴾ موصيا لهم في هذه الحالة، – التي لا يقدرون معها على شيء، ولا مقاومة – بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿ استعينوا بالله ﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله، أنه سيتم أمركم ﴿ واصبروا ﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج.

﴿ إن الأرض لله ﴾ ليست **لفرعون** ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ [ص ٣٠١] أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم – وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم، ﴿ والعاقبة ﴾ الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج.

﴿ قالوا ﴾ **لموسى متضجرين** من طول ما مكثوا في عذاب **فرعون**، وأذيته: ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ﴾ فإنهم يسوموننا سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾ كذلك ف ﴿ قال ﴾ لهم **موسى مرجيا** [لهم] (٣) الفرج والخلاص من شرهم: ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾ أي: يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أراده الله.

قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل **فرعون** في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وسنته في الأمم، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون. الآيات: ﴿ ولقد أخذنا آل **فرعون** بالسنين ﴾ أي: بالدهور والجدب، ﴿ ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

---

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: آمنا بربنا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

(٣) زيادة من هامش ب.". (١)

٧-"﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أي: الخصب وإدرار الرزق ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي: قحط وجدب ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿ أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿ وقالوا ﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم: ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية، جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضررا كثيرا ﴿ والجراد ﴾ فأكل ثمارهم وزروعهم، ونباتهم ﴿ والقمل ﴾ قيل: إنه الدباء، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿ والضفادع ﴾ فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وآذتهم أذية شديدة ﴿ والدم ﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دما، فكانوا لا يشربون إلا دما، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿ آيات مفصلات ﴾ أي: أدلة وبينات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى، حق وصدق ﴿ فاستكبروا ﴾ لما رأوا الآيات ﴿ وكانوا ﴾ في سابق أمرهم ﴿ قوما مجرمين ﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿ ولما وقع عليهم الرجز ﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه ﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفا مؤبدا، وإنما هو مؤقت، ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلا وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿ إن هؤلاء

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٠٠

لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين *ثم أغرقنا الآخرين ﴾ .

وقال هنا: ﴿ فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل [ص ٣٠٢] فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ والمراد بالأرض هاهنا، أرض مصر، التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين، أي: ملكهم الله جميعا، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ حين قال لهم موسى: ﴿ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ .

﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ من الأبنية الهائلة، والمساكن المزخرفة ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ .". (١)

٨-"﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنوا إسرائيل ينظرون.

﴿ فأتوا ﴾ أي: مروا ﴿ على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها.

ف ﴿ قالوا ﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم ﴿ يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناما آلهة كما اتخذها هؤلاء.

ف ﴿ قال ﴾ لهم موسى: ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخالقه وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؟"

ولهذا قال لهم موسى ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿ قال أغير الله أبغيكم إلها ﴾ أي: أأطلب لكم إلها غير الله المألوه، الكامل في ذاته، وصفاته وأفعاله. ﴿ وهو فضلكم على العالمين ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله، وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر بما يدعي من دونه.

ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم فقال: ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون ﴾ أي: من فرعون وآله ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم ﴾ النجاة من عذابهم ﴿ بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو: وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٠١

عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك.

ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، ويتهيأ لوعد الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصيا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿ اخلفني في قومي ﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿ وأصلح ﴾ أي: اتبع طريق الصلاح ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿ وكلمه ربه ﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حبا لربه ومودة لرؤيته.

ف ﴿ قال رب أرني أنظر إليك قال ﴾ الله ﴿ لن تراني ﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال – مقنعا لموسى في عدم إجابته للرؤية – ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ﴾ إذا تجلى الله له ﴿ فسوف تراني ﴾ .

﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾ الأصم الغليظ ﴿ جعله دكا ﴾ أي: انهال مثل الرمل، انزعاجا من رؤية الله وعدم ثبوته لها (١) ﴿ وخر موسى ﴾ حين رأى ما رأى ﴿ صعقا ﴾ فتبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعا و[لذلك] (٢) ﴿ قال سبحانك ﴾ أي: تنزيها لك، وتعظيما عما لا يليق بجلالك ﴿ تبت إليك ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته – بعدما كان متشوقا إليها – أعطاه خيرا كثيرا فقال:

---

(١) كذا في ب، وفي أ: وعدم ثبوت.

(٢) زيادة من هامش ب.". (١)

٩–"﴿ ٧٥ ﴾ ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون ﴾ . إلى آخر القصة (١)

أي: ﴿ ثم بعثنا ﴾ من بعد هؤلاء الرسل، الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين.

﴿ موسى ﴾ بن عمران، كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتدى بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٠٢

الواسعة.

﴿ و ﴾ جعلنا معه أخاه ﴿ هارون ﴾ وزيرا بعثناهما ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم، تبع للرؤساء.

﴿ بآياتنا ﴾ الدالة على صدق ما جاءء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى، ﴿ فاستكبروا ﴾ عنها ظلما وعلوا، بعد ما استيقنوها.

﴿ وكانوا قوما مجرمين ﴾ أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

---

(١) في ب أكمل الآيات إلى قوله تعالى:"إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون".". [1]

١٠-"﴿ ٧٩ ﴾ ﴿ وقال فرعون ﴾ معارضا للحق، الذي جاء به موسى، ومغالطا (١) لملئه وقومه: ﴿ ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي: ماهر بالسحر، متقن له. فأرسل في مدائن مصر، من أتاه بأنواع السحرة، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

﴿ فلما جاء السحرة ﴾ للمغالبة مع موسى (٢) ﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ أي: أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئا، وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبال بهم، وبما جاءوا به.

﴿ فلما ألقوا ﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كأنها حيات تسعى، ف ﴿ قال موسى ما جئتم به السحر ﴾ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿ إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟!!

وهكذا كل مفسد عمل عملا واحتال كيدا، أو أتى بمكر، فإن عمله سيبطل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما، فإن مآله الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة، مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها، وينميها على الدوام، فألقى موسى عصاه، فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم.

---

(١) في ب: ومغالبا.

(٢) في ب: للمغالبة لموسى.". [2]

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٧٠

(٢) تفسير السعدي ص/٣٧١

١١-"﴿ ٨٢ ﴾ ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ فألقي السحرة سجدا حين تبين لهم الحق. فتوعدهم فرعون بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم.

وأما فرعون وملؤه، وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل استمروا في طغيانهم يعمهون.

ولهذا قال: ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ أي: شباب من بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان.

﴿ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ عن دينهم ﴿ وإن فرعون لعال في الأرض ﴾ أي: له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته.

﴿ و ﴾ خصوصا ﴿ إنه ﴾ كان ﴿ لمن المسرفين ﴾ أي: المتجاوزين للحد، في البغي والعدوان.

والحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقيادا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة- أبعد من الحق من غيرهم.". (١)

١٢-"﴿ ٨٧ ﴾ ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه ﴾ حين اشتد الأمر على قومهما، من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم.

﴿ أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ﴾ أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتا، يتمكنون]به[من الاستخفاء فيها.

﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي: اجعلوها محلا تصلون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع العامة.

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا، وحين اشتد الكرب، وضاق الأمر، فرجه الله ووسعه.

فلما رأى موسى، القسوة والإعراض من فرعون وملئه (١) ، دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال:

---

(١) في النسختين: وملئهم، ولعل الصواب ما أثبت.". (٢)

١٣-"﴿ ٩٠ ﴾ ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى، لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقا، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه (١) داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.

حتى إذا أدرك فرعون الغرق، وجزم بهلاكه ﴿ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ وهو الله الإله الحق

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٧١

(٢) تفسير السعدي ص/٣٧٢

الذي لا إله إلا هو ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

﴿ ٩١ ﴾ قال الله تعالى – مبينا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له–: ﴿ آلآن ﴾ تؤمن، وتقر برسول الله ﴿ وقد عصيت قبل ﴾ أي: بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم، صار إيمانا مشاهدا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع، إنما هو الإيمان بالغيب.

---

(١) في أ: وجنودهم خلفهم، وفي ب عدلت إلى: وجنوده خلفه.". (١)

١٤–"﴿ ٨٩ ﴾ ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ هذا دليل على أن موسى، [كان] يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن، يكون شريكا للداعي في ذلك الدعاء.

﴿ فاستقيما ﴾ على دينكما، واستمرا على دعوتكما، ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم، فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلا وأخبره أنهم يتبعون، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون: ﴿ إن هؤلاء ﴾ أي: موسى وقومه: ﴿ لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون ﴾

فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم فأتبعهم بجنوده بغيا وعدوا أي خروجهم باغين على موسى وقومه ومعتدين في الأرض وإذا اشتد البغي واستحكم الذنب فانتظر العقوبة". (٢)

١٥–"﴿ ٩٦ – ١٠١ ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ .

إلى آخر القصة (١) يقول تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى ﴾ بن عمران ﴿ بآياتنا ﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا، واليد ونحوهما، من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام.

﴿ وسلطان مبين ﴾ أي: حجة ظاهرة بينة، ظهرت ظهور الشمس.

﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي: أشراف قومه لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات، التي أراهم إياها، كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ بل هو ضال غاو، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم – لما اتبعه قومه – أرداهم وأهلكهم.

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٧٢

(٢) تفسير السعدي ص/٣٧٢

(١) في ب: أورد الآيات إلى قوله تعالى: " وما زادوهم غير تتبيت ".". (١)

١٦-"﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد * وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ﴾ .

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله فقال: ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ أي: بقلوبكم وألسنتكم. ﴿ إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم ﴾ أي: يولونكم ﴿ سوء العذاب ﴾ أي: أشده وفسر ذلك بقوله: ﴿ ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أي: يبقونهن فلا يقتلونهن، ﴿ وفي ذلكم ﴾ الإنجاء ﴿ بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟

وقال لهم حاثا على شكر نعم الله: ﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي: أعلم ووعد، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ من نعمي ﴿ ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم.

والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله والثناء على الله بها وصرفها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا ﴾ فلن تضروا الله شيئا، ﴿ فإن الله لغني حميد ﴾ فالطاعات لا تزيد في ملكه والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.". (٢)

١٧-"﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ التي لا تنفد ولا تبيد. ﴿ إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله ، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

[ص ٤٦٨]

﴿ ١٠١-١٠٤ ﴾ ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا * وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ .

أي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات، أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى ابن عمران الكليم، إلى فرعون وقومه، وآتيناه ﴿ تسع آيات بينات ﴾ كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية، والعصا، والطوفان، والجراد،

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٨٩

(٢) تفسير السعدي ص/٤٢٢

والقمل، والضفادع، والدم، والرجز، وفلق البحر.

فإن شككت في شيء من ذلك ﴿ فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون ﴾ مع هذه الآيات ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ .

ف ﴿ قال ﴾ له موسى ﴿ لقد علمت ﴾ يا فرعون ﴿ ما أنزل هؤلاء ﴾ الآيات ﴿ إلا رب السماوات والأرض بصائر ﴾ منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجا على قومك، واستخفافا لهم.

﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ أي: ممقوتا، ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.

﴿ فأراد ﴾ فرعون ﴿ أن يستفزهم من الأرض ﴾ أن: يجليهم ويخرجهم منها. ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾ وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم.

ولهذا قال: ﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ أي: جميعا ليجازى كل عامل بعمله.". (١)

١٨-"وقوله: ﴿ فتردى ﴾ أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد [ص ٥٠٤] عنها، وقوله تعالى: ﴿ ١٧ - ٢٣ ﴾ ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ .

لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوي إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ هذا، مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى:

﴿ هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة. ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه، هش بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاه الغنم.

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿ ولي فيها مآرب ﴾ أي: مقاصد ﴿ أخرى ﴾ غير هذين الأمرين. ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملا عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها فقال الله له: ﴿ ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾

انقلبت بإذن الله ثعبانا عظيما فولى موسى هاربا خائفا ولم يعقب وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده وهو أن

(١) تفسير السعدي ص/٤٦٧

يظن أنها تخييل لا حقيقة فكونها تسعى يزيل هذا الوهم

فقال الله لموسى ﴿ خذها ولا تخف ﴾ أي ليس عليك منها بأس ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ أي هيئتها وصفتها إذ كانت عصا فامتثل موسى أمر الله إيمانا به وتسليما فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه –آية ثم ذكر الآية الأخرى فقال ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ أي أدخل يدك في جيبك وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي بياضا ساطعا من غير عيب ولا برص ﴿ آية أخرى ﴾

قال الله ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾

﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ أي فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بيضاء للناظرين لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به فيطمئن قلبك ويزداد علمك وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة ولتكون حجة وبرهانا لمن أرسلت إليهم". (١)

١٩–"﴿ ٢٤ – ٣٦ ﴾ ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

لما أوحى الله إلى موسى، ونبأه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية – قبحه الله– أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحدا، إلا بعد قيام الحجة بالرسل، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملا عظيما، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] (١) من تمام الدعوة، فقال: ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿ ويسر لي أمري ﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿ واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي ﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون كما قال الله

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٠٣

عنه أنه قال ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لسانا ﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني

﴿ واجعل لي وزيرا من أهلي ﴾ أي معينا يعاونني ويؤازرني ويساعدني على من أرسلت إليهم وسأل أن يكون من أهله لأنه من باب البر وأحق ببر الإنسان قرابته ثم عينه بسؤاله فقال ﴿ هارون أخي * اشدد به أزري ﴾ أي قوني به وشد به ظهري قال الله ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا ﴾

﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في النبوة بأن تجعله نبيا رسولا كما جعلتني

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال ﴿ كي نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا ﴾ علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات

﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم فمن علينا بما سألناك وأجب لنا فيما دعوناك

فقال الله ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ أي أعطيت جميع ما طلبت فسنشرح صدرك ونيسر أمرك ونحل عقدة من لسانك يفقهوا قولك ونشد عضدك بأخيك هارون ﴿ ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾

وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه ويحتاج مع ذلك أيضا أن يتيسر له أمره فيأتي البيوت من أبوابها ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن يعامل الناس كلا بحسب حاله وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيها

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر وتيسير الأمر وفصاحة اللسان وحسن التعبير والبيان والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره

---

(١) زيادة من هامش: ب.". [١]

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٠٤

٢٠-"﴿ ٣٧ - ٤١ ﴾ ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ .
لما ذكر منته على عبده ورسوله، **موسى بن** عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره فقال: ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع، خوفا من **فرعون**، لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه، وخافت عليه خوفا شديدا فقذفته في التابوت، ثم قذفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم، أن يلقيه في الساحل، وقيض أن يأخذه، أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال:". (١)

٢١-"﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى * أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني * إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا **موسى** * واصطنعتك لنفسي ﴾ .
﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ فكل من رآه أحبه ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجل وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى، ومن حسن تدبيره، أن **موسى لما** وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقا شديدا، وأصبح فؤادها فارغا، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة، حرم الله على **موسى المراضع**، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون مآله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثديا.
فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾
﴿ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا ﴾ وهو القبطي لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه **موسى فقضى** عليه ﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هاربا لما سمع أن الملأ طلبوه، يريدون قتله.
فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب، ومن القتل، ﴿ وفتناك فتونا ﴾ أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيما في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ﴾ حين فر هاربا من **فرعون** وملئه، حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين، [ص ٥٠٦] ﴿ ثم جئت على قدر يا **موسى** ﴾ أي: جئت مجيئا قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقا من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه **موسى عليه** السلام، ولهذا قال: ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي، وتربيتي، لتكون لنفسي

---
(١) تفسير السعدي ص/٥٠٤

حبيبا مختصا، وتبلغ في ذلك مبلغا لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه؟"". [1]

٢٢-"﴿ إنا قد أوحي إلينا ﴾ أي خبر من عند الله لا من عند أنفسنا ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي كذب بأخبار الله وأخبار رسله وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم وهذا فيه الترغيب **لفرعون** بالإيمان والتصديق واتباعهما والترهيب من ضد ذلك ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير فأنكر ربه وكفر وجادل في ذلك ظلما وعنادا
[ص ٥٠٧]
﴿ ٤٩ - ٥٥ ﴾ ﴿ قال فمن ربكما يا **موسى** * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى ﴾ .
أي: قال **فرعون لموسى على** وجه الإنكار: ﴿ فمن ربكما يا **موسى** ﴾ فأجاب **موسى بجواب** شاف كاف واضح، فقال: ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ ثم هدى ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة (١) المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن (٢) به على ذلك.
وهذا كقوله تعالى: ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن **فرعون**، أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى:

---
(١) في ب: الكاملة.
(٢) كذا في ب، وفي أ: ما تتمكن.". [2]

---
(١) تفسير السعدي ص/٥٠٤
(٢) تفسير السعدي ص/٥٠٦

٢٣-"﴿ ٤٢ - ٤٦ ﴾ ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري * اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ .

لما امتن الله على موسى بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ هارون ﴿ بآياتي ﴾ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئه، ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك ﴿كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها، ويخفف حملها.

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي: جاوز الحد، في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ أي: سهلا لطيفا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، ﴿ لعله ﴾ بسبب القول اللين ﴿ يتذكر ﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿ أو يخشى ﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل فإنه أتى بـ " هل " الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئز منها أحد ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم ولم يقل " أزكيك " بل قال " تزكى " أنت بنفسك ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها فقال ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب علم أنه لا ينجع فيه تذكير فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ﴾ أي يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن تبلغه رسالاتك ونقيم عليه الحجة ﴿ أو أن يطغى ﴾ أي يتمرد عن الحق ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه

﴿ قال لا تخافا ﴾ أن يفرط عليكما ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي أنتما بحفظي ورعايتي أسمع أقوالكما وأرى جميع أحوالكما فلا تخافا منه فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما". (١)

٢٤-"﴿ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى *كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علما وخبرا، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم،

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٠٦

فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت،ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها، قد تحققت صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلا ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدها مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وقال موسى: ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا ﴾ أي: فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للازدراع وغيره، وذللها لذلك، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعون بأسفارهم، أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾ أي: أنزل المطر ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ وأنبت بذلك جميع أصناف النوابت على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقا لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوابت الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضرا، كالسموم ونحوه.

﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم، حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة. ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ولما ذكر كرم الأرض، وحسن [ص ٥٠٨] شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها، تخرج النبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.".

(١)

٢٥-"﴿ ٥٦ - ٦١ ﴾ ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾ .

يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العيانية، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبر، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلا والباطل حقا، وجادل بالباطل ليضل الناس، فقال: ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثرا في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليبغضوه، ويسعوا في محاربته، فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا، واجعل لنا ﴿ موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ﴾ أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكانا مستويا معتدلا ليتمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى فيه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾ أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك، متوفرا، وعلمه علما مرغوبا فيه، فجمع خلقا كثيرا من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلا حضره الرجال والنساء، والملأ والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿ هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ﴾ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملائه، ولا تسلمون من عذاب الله، وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب.

لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ليقضي الله أمرا كان مفعولا ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ﴾ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك

(١) تفسير السعدي ص/٥٠٧

الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسرها بقوله: ﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾كمقالة **فرعون** السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقا من **فرعون** والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول **فرعون** أن قالوا: ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبته، ولهذا قالوا:

﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقا رأيكم وكلمتكم، ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام". (١)

٢٦-"فلله درهم ما أصلبهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب، ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل.فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿ قالوا يا **موسى إما** أن تلقي ﴾ عصاك ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ خيروه، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي: حالة كانت، فقال لهم موسى: ﴿ بل ألقوا ﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم، ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه ﴾ أي: إلى **موسى** ﴿ من سحرهم ﴾ البليغ ﴿ أنها تسعى ﴾ أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى **موسى ذلك**.

﴿ أوجس في نفسه خيفة **موسى** ﴾كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره.

﴿ قلنا ﴾ له تثبيتا وتطمينا: ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويذلوا [ص ٥٠٩] لك ويخضعوا.

﴿ وألق ما في يمينك ﴾ أي: عصاك ﴿ تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ أي: كيدهم ومكرهم، ليس بمثمر لهم ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة، الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل، ويخيلون أنهم على الحق، فألقى **موسى عصاه**، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علما يقينا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان.

﴿ فألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين رب **موسى وهارون** ﴾ فوقع الحق وظهر وسطع وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين وحجة على المعاندين ف ﴿ قال ﴾ **فرعون** للسحرة ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ أي كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟

استغرب ذلك منهم لأدبهم معه وذلهم وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم وجعل هذا من ذاك

(١) تفسير السعدي ص/٥٠٨

ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان واستخف عقول قومه وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذي معه الحق بل لأنه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم فقبل قومه هذا المكر منه وظنوه صدقا ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع فإن موسى أتى من مدين وحيدا وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه وأراهم الآيات فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى فسعى ما أمكنه وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم

فجاءوا إليه ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى وكان منهم ما كان فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال ثم توعد فرعون السحرة فقال ﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾

كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي لأجل أن تشتهروا وتختزوا ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ يعني بزعمه هو أو الله وأنه أشد عذابا من الله وأبقى قلبا للحقائق وترهيبا لمن لا عقل له

ولهذا لما عرف السحرة الحق ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق أجابوه بقولهم

﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أرانا الله من الآيات البينات الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده المعظم المبجل وحده وأن ما سواه باطل ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا هذا لا يكون ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ مما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب

﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم

وهذا كأنه جواب منهم لقوله ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ أي كفرنا ومعاصينا فإن الإيمان مكفر للسيئات والتوبة تجب ما قبلها وقولهم ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ الذي عارضنا به الحق هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم وإنما أكرههم فرعون إكراها

والظاهر –والله أعلم– أن موسى لما وعظهم كما تقدم في قوله ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب ﴾ أثر معهم ووقع منهم موقعا كبيرا ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة ثم إن فرعون ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذي أجروه ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم حيث قالوا ﴿ إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ﴾ فجروا على ما سنه لهم وأكرههم عليه ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هي التي أثرت معهم ورحمهم الله بسببها ووفقهم للإيمان والتوبة ﴿ والله خير ﴾ مما وعدتنا من

الأجر والمنزلة والجاه وأبقى ثوابا وإحسانا لا ما يقول فرعون ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ يريد أنه أشد عذابا وأبقى وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ولم يذكر أنه فعل ذلك ولم يأت في ذلك حديث صحيح والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل والله أعلم بذلك وغيره ولكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره دليل على وقوعه ولأنه لو لم يقع لذكره الله ولاتفاق الناقلين على ذلك". [١]

٢٧-"﴿ ٧٧ - ٧٩ ﴾ ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ .

لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرا، ويقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى (١) أن سر أو سيروا أول الليل، ليتمادوا (٢) في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا مجيب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين، ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظا وحنقا، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفرق اثني عشر طريقا، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق.

فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه (٣) .

وهذا عاقبة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأضل فرعون قومه ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال.

---

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل ويبدو أنها مشطوبة في أ.

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٠٨

(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة.
(٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.". (١)

٢٨-"أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟، فقال: ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ وهو جبريل عليه السلام على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿ فاذهب ﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿ فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿ وإن لك موعدا لن تخلفه ﴾ فتجازى بعملك، من خير وشر، ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا ﴾ أي: العجل ﴿ لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا ﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلها، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى داع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال: ﴿ ٩٨ ﴾ ﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ﴾ .
أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يرجى ولا يخاف، ولا يدعى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.". (٢)

٢٩-"﴿ فجعلهم جذاذا ﴾ أي كسرا وقطعا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ أي إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: " إلى عظيم الفرس " " إلى عظيم الروم " ونحو ذلك، ولم يقل " إلى العظيم " وهنا قال تعالى: ﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ ولم يقل " كبيرا من أصنامهم " فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.
وقوله: ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ أي ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها ولهذا قال في آخرها: ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾
فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد

(١) تفسير السعدي ص/٥١٠
(٢) تفسير السعدي ص/٥١٢

رأى ما يفعل بها ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أي: يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿ قالوا فأتوا به ﴾ أي: بإبراهيم ﴿ على أعين الناس ﴾ أي بمرأى منهم ومسمع ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال **موسى حين** واعد **فرعون**:
﴿ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿ أأنت فعلت هذا ﴾ أي: التكسير ﴿ بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ ؟ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟.

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ أي: كسرها غضبا عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، المقصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وأراد الأصنام المكسرة اسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، اسألوه لأي شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى.

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم [ص ٥٢٧] الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿ نكسوا على رءوسهم ﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ .

فقال إبراهيم – موبخا لهم ومعلنا بشركهم على رءوس الأشهاد، ومبينا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة–: ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ فلا نفع ولا دفع.

﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم، أحسن حالا منكم.

فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، فـ ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ أي: اقتلوه أشنع القتلات، بالإحراق، غضبا لآلهتكم، ونصرة لها. فتعسا لهم تعسا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلها، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ فكانت عليه بردا وسلاما، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه.

﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ حيث عزموا على إحراقه، ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه، هم الرابحين المفلحين.

﴿ ونجيناه ولوطا ﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ أي: الشام، فغادر قومه في " بابل " من أرض العراق، ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ﴾ ومن بركة الشام، أن كثيرا من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها، مهاجرا لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس.

﴿ ووهبنا له ﴾ حين اعتزل قومه ﴿ إسحاق ويعقوب ﴾ ابن إسحاق ﴿ نافلة ﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقرا، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ ويعقوب، هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته، سيد الأولين والآخرين. ﴿ وكلا ﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ جعلنا صالحين ﴾ أي: قائمين بحقوقه، وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماما يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.". (١)

٣٠-"﴿ ٤٥ - ٤٩ ﴾ ﴿ ثم أرسلنا **موسى وأخاه** هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى **فرعون** وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين * فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون * فكذبوهما فكانوا من المهلكين * ولقد آتينا **موسى الكتاب** لعلهم يهتدون ﴾ .

مر علي منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث **موسى ونزول** التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه، أما هذه الآيات، فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل **موسى بعدهم**، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا، إهلاك **فرعون**، فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص، فهي صريحة جدا، فإنه لما ذكر هلاك **فرعون** قال: ﴿ ولقد آتينا **موسى الكتاب** من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة " يونس " من قولة: ﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ أي: من بعد نوح ﴿ رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين * ثم بعثنا من بعدهم **موسى وهارون** ﴾ الآيات والله أعلم

فقوله ﴿ ثم أرسلنا **موسى** ﴾ بن عمران كليم الرحمن ﴿ وأخاه هارون ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله ﴿ بآياتنا ﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به ﴿ وسلطان مبين ﴾ أي حجة بينة من قوتها أن تقهر القلوب وتتسلط عليها لقوتها فتنقاد لها قلوب المؤمنين وتقوم الحجة البينة على المعاندين وهذا كقوله ﴿ ولقد آتينا **موسى تسع** آيات بينات ﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿ فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ﴾ أي بتلك الآيات البينات ﴿ فقال له **فرعون**

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٢٦

إني لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ ف ﴿ قال ﴾ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ وقال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وقال هنا ﴿ ثم أرسلنا موسى [ص ٥٥٣] وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه ﴾ ك " هامان " وغيره من رؤسائهم ﴿ فاستكبروا ﴾ أي تكبروا عن الإيمان بالله واستكبروا على أنبيائه ﴿ وكانوا قوما عالين ﴾ أي وصفهم العلو والقهر والفساد في الأرض فلهذا صدر منهم الاستكبار ذلك غير مستكثر منهم

﴿ فقالوا ﴾ كبرا وتيها وتحذيرا لضعفاء العقول وتمويها ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم وأفعالهم وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة

﴿ وقومهما ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ لنا عابدون ﴾ أي معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة كما قال تعالى ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟" وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟" ونظير قولهم قول قوم نوح ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق وأنه تكذيب ومعاندة

ولهذا قال ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ في الغرق في البحر وبنو إسرائيل ينظرون

﴿ ولقد آتينا موسى ﴾ بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم وإظهار شعائره وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة فذهب لميقات ربه قال الله تعالى ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء ﴾ ولهذا قال هنا ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ أي بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثواب والعقاب ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته". (١)

٣١-"﴿ ١٠ - ٦٨ ﴾ ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾ إلى آخر القصة قوله: ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾

أعاد الباري تعالى، قصة موسى وثناها في القرآن، ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة، وعبر وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونبأه وأرسله فقال: ﴿ أن ائت القوم الظالمين ﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية.

﴿ قوم فرعون ألا يتقون ﴾ أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة ﴿ ألا تتقون ﴾ الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام، معتذرا من ربه، ومبينا لعذره، وسائلا له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿ قال رب إني أخاف

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٥٢

أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ﴾.
فقال: ﴿ رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيرا من أهلي * هارون أخي ﴾ ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ فأجاب الله طلبته ونبأ أخاه هارون كما نبأه ﴿ فأرسله معي ردءا ﴾ أي معاونا لي على أمري أن يصدقوني
﴿ ولهم علي ذنب ﴾ أي في قتل القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾
﴿ قال كلا ﴾ أي لا يتمكنون من قتلك فإنا سنجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون
ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى مع منابذته له غاية المنابذة وتسفيه رأيه وتضليله وقومه ﴿ فاذهبا بآياتنا ﴾ الدالة على [ص ٥٩٠] صدقكما وصحة ما جئتما به ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ أحفظكما وأكلؤكما
﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ أي أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا وتنقاد لعبادته وتذعن لتوحيده
﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ فكف عنهم عذابك وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم
فلما جاءا فرعون وقالا له ما قال الله لهما لم يؤمن فرعون ولم يلن وجعل يعارض موسى ف ﴿ قال ألم نربك فينا وليدا ﴾ أي ألم ننعم عليك ونقم بتربيتك منذ كنت وليدا في مهدك ولم تزل كذلك
﴿ ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ وهي قتل موسى للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعته، على الذي من عدوه ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ الآية.
﴿ وأنت من الكافرين ﴾ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك سبيلنا، في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر، من حيث لا يدري.". (١)

٣٢-"فقال موسى: ﴿ فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي.
﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم. ﴿ فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ﴾.
فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراض جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولا أن جرى منه القتل، فبين له موسى، أن قتله كان على وجه الضلال والخطأ، الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما منحني الله، من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ وعند التحقيق، يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: ﴿ وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴾.
أي: تدلي علي بهذه المنة لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور، يتبين أن الحقيقة، أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم وسخرتهم بأعمالك، وأنا

---
(١) تفسير السعدي ص/٥٨٩

قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تبت بها وتدلي بها؟.

﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ وهذا إنكار منه لربه، ظلما وعلوا، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى، قال: ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾.

أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية. ومن جملة ذلك، أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسماوات ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ فقال فرعون متجرهما، ومعجبا لقومه: ﴿ ألا تستمعون ﴾ ما يقول هذا الرجل، فقال موسى: ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ تعجبتم أم لا استكبرتم، أم أذعنتم.

فقال فرعون معاندا للحق، قادحا بمن جاء به: ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض، ما زالتا موجودتين من غير موجد وأنهم، بأنفسهم، خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص، من جميع الوجوه، والجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ فقال موسى عليه السلام، مجيبا لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ﴾.

من سائر المخلوقات ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ فقد أديت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلا وأكملهم علما، بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأي شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأي شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي شيء – بعد الله وآياته – تؤمنون؟ تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم، أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة، أهدى منكم.

فلما خنقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة ﴿ قال ﴾ متوعدا لموسى بسلطانه ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ زعم – قبحه الله – أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلها غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه، على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: ﴿ أولو جئتك بشيء مبين ﴾ أي: آية ظاهرة جلية، على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

[ص ٥٩١]

﴿ قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان ﴾ أي: ذكر الحيات، ﴿ مبين ﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه.

﴿ ونزع يده ﴾ من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي: لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها.

﴿ قال ﴾ فرعون ﴿ للملإ حوله ﴾ معارضا للحق، ومن جاء به: ﴿ إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ موه عليهم لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المتقرر عندهم، أن السحرة يأتون من

العجائب، بما لا يقدر عليه الناس، وخوفهم أن قصده بهذا السحر، التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، ليجدوا ويجتهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم، ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أن نفعل به؟.

﴿ قالوا أرجه وأخاه ﴾ أي: أخرهما ﴿ وابعث في المدائن حاشرين ﴾ جامعين للناس.

﴿ يأتوك ﴾ أولئك الحاشرون ﴿ بكل سحار عليم ﴾ أي: ابعث في جميع مدنك، التي هي مقر العلم، ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في سحره فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يري العباد، بطلان ما موه به **فرعون** الجاهل الضال، المضل أن ما جاء به **موسى سحر**، قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة، بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل **فرعون** برأيهم، فأرسل في المدائن، من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك، وجد.

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود.". (١)

٣٣-"﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فنتبعهم، ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعلنا نتبع المحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم.

﴿ فلما جاء السحرة ﴾ ووصلوا **لفرعون** قالوا له: ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ لموسى؟

﴿ قال نعم ﴾ لكم أجر وثواب ﴿ وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ عندي، وعدهم الأجر والقربة منه، ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

فلما اجتمعوا للموعد، هم وموسى، وأهل مصر، وعظهم **موسى وذكرهم** وقال: ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾ فتنازعوا وتخاصموا ثم شجعهم **فرعون**، وشجع بعضهم بعضا.

ف ﴿ قال لهم **موسى ألقوا** ما أنتم ملقون ﴾ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم ﴾ فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس، ﴿ وقالوا بعزة **فرعون** إنا لنحن الغالبون ﴾ فاستعانوا بعزة عبد ضعيف، عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قسم منهم بعزة **فرعون** والمقسم عليه، أنهم غالبون.

﴿ فألقى **موسى عصاه** فإذا هي تلقف ﴾ تبتلع وتأخذ ﴿ ما يأفكون ﴾ فالتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك، وكذب، وزور وذلك كله باطل لا يقوم للحق، ولا يقاومه.

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٩٠

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا – لعلمهم – أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبئ بصدق موسى، وصحة ما جاء به.

﴿ فألقي السحرة ساجدين ﴾ لربهم.

﴿ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ وانقمع الباطل، في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه، ببطلانه، ووضح الحق، وظهر حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون، إلا عتوا وضلالا وتماديا في غيه وعنادا، فقال للسحرة: ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾.

يتعجب ويعجب قومه من جراءتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته.

﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ هذا، وهو الذي جمع السحرة، وملأه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر، بما يحير الناظرين ويهيلهم، ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم، وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح، والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم توعد السحرة فقال: ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ أي: اليد اليمنى، والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض، [ص ٥٩٢] ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ لتختزوا، وتذلوا. فقال السحرة – حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته –: ﴿ لا ضير ﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ من الكفر والسحر، وغيرهما ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه، واقتداره إذ ذاك ويحتمل، أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه، مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى، وعاهدوه لئن كشف الله عنهم، ليؤمنن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون، فلما يئس موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿ أن أسر بعبادي ﴾.

أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم. ﴿ إنكم متبعون ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴾ يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعا لقومه: ﴿ إن هؤلاء ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿ لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون ﴾ ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبقوا منا.

﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده، في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ﴾ أي: بساتين مصر وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿ ومقام كريم ﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين، تمتعوا به دهرا طويلا وقضوا بلذته وشهواته، عمرا مديدا، على الكفر والفساد، والتكبر على العباد والتيه العظيم.

﴿ كذلك وأورثناها ﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، ﴿ بني إسرائيل ﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي: اتبع قوم **فرعون** قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحنق قادرين.". (١)

٣٤-"﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي رأى كل منهما صاحبه، ﴿ قال أصحاب **موسى** ﴾ شاكين **لموسى وحزنين** ﴿ إنا لمدركون ﴾ فـ ﴿ قال ﴾ موسى، مثبتا لهم، ومخبرا لهم بوعد ربه الصادق: ﴿ كلا ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم.

﴿ فأوحينا إلى **موسى أن** اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه ﴿ فانفلق ﴾ اثني عشر طريقا ﴿ فكان كل فرق كالطود ﴾ أي: الجبل ﴿ العظيم ﴾ فدخله **موسى وقومه**.

﴿ وأزلفنا ثم ﴾ في ذلك المكان ﴿ الآخرين ﴾ أي **فرعون** وقومه، قربناهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه **موسى وقومه**.

﴿ وأنجينا **موسى ومن** معه أجمعين ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد.

﴿ إن في ذلك لآية ﴾ عظيمة، على صدق ما جاء به **موسى عليه** السلام، وبطلان ما عليه **فرعون** وقومه، ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ مع هذه الآيات المقتضية للإيمان، لفساد قلوبكم.

﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى، ومن معه أجمعين.". (٢)

٣٥-"﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون * وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ .

ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم فقال: ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد، وخير الأعمال وأزكى

---

(١) تفسير السعدي ص/٥٩١

(٢) تفسير السعدي ص/٥٩٢

الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة، على طبق ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين ولم يهتد بها جميع المعاندين صونا لها عن من لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم.

فلهذا قال: ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان فهل يقبل من كل أحد ادعى [ص ٦٠١] أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين فقال: ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ فرضها ونفلها فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها وشروطها وواجباتها بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي روحها ولبها باستحضار قرب الله وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب وهذا أصل كل خير.

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ ويكذبون بها ويكذبون من جاء بإثباتها، ﴿ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ حائرين مترددين مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق فرأوا الباطل حقا والحق باطلا.

﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ أي: أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ حصر الخسار فيهم لكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتتلقفه وتتلقنه ينزل من عند ﴿ حكيم ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها. ﴿ عليم ﴾ بأسرار الأمور (١) وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿ حكيم عليم ﴾ (٢) علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿ إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا ﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين وسار بأهله من مدين متوجها إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل وكان في ليلة مظلمة باردة فقال لهم: ﴿ إني آنست نارا ﴾ أي: أبصرت نارا من بعيد ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ عن الطريق، ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه ومشتد برده هو وأهله.

﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ أي: ناداه الله تعالى وأخبره أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته

أن جعله الله موضعا لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ عن أن يظن به نقص أو سوء بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له كما في الآية الأخرى ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ ﴿ العزيز ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وأذعنت له كل المخلوقات، ﴿ الحكيم ﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته أن أرسل عبده موسى بن عمران الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته أن تعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله وحركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿ وألق عصاك ﴾ فألقاها ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ﴾ وهو ذكر الحيات سريع الحركة، ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ ذعرا من الحية التي رأى على مقتضى الطبائع البشرية، فقال الله له: ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿ أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ ﴿ إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله خصوصا عند زيادة القرب منه والحظوة بتكليمه.

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء ﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب فبدل سيئاته حسنات ومعاصيه طاعات فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته فإنه يغفر الذنوب جميعا وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه. ﴿ في تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ أي: هاتان الآيتان انقلاب العصا حية تسعى وإخراج اليد من [ص ٦٠٢] الجيب فتخرج بيضاء في جملة تسع آيات تذهب بها وتدعو فرعون وقومه، ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ودعاهم إلى الله تعالى وأراهم الآيات.

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ مضيئة تدل على الحق ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس. ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر بل قالوا: ﴿ مبين ﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب الآيات المبصرات والأنوار الساطعات، تجعل من بين الخزعبلات وأظهر السحر! هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة.

---

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق قلم الشيخ –رحمه الله– فكتب: (حكيم خبير) فصححتها، وأبقيت التفسير كما هو.". (١)

٣٦-"﴿ ١-٥١ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾

إلى آخر القصة. ﴿ تلك ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلاها للعباد، ووضحها.

ومن جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿ نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق ﴾ فإن نبأهما غريب، وخبرهما عجيب.

﴿ لقوم يؤمنون ﴾ فإليهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان، ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون به إيمانا ويقينا، وخيرا إلى خيرهم، وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجابا أن يفقهوه.

فأول هذه القصة ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها.

[ص ٦١٢]

﴿ وجعل أهلها شيعا ﴾ أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره، وسطوته.

﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل، الذين فضلهم الله على العالمين، الذين ينبغي له أن يكرمهم ويجلهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ خوفا من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأهم. ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.". (٢)

٣٧-"﴿ ونمكن لهم في الأرض ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته، ﴿ و ﴾ كذلك نريد أن ﴿ نري فرعون وهامان ﴾ وزيره ﴿ وجنودهما ﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿ منهم ﴾ أي: من هذه الطائفة

---

(١) تفسير السعدي ص/٦٠٠

(٢) تفسير السعدي ص/٦١١

المستضعفة. ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمرا سهل أسبابه، ونهج طرقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدر وأجرى من الأسباب –التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه– ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود.

فأول ذلك، لما أوجد الله رسوله موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿ فإذا خفت عليه ﴾ بأن أحسست أحدا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿ فألقيه في اليم ﴾ أي نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى.

﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه، ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدوا لهم وحزنا يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قيض الله أن يكون زعيمهم، يتربى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع، إنه لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف –الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه – أن صار بعض أفراده، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدريج شيئا فشيئا، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم (١) ونكيد هم، جزاء على مكرهم وكيدهم.

فلما التقطه آل فرعون، حنن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة " آسية " بنت مزاحم " وقالت " هذا الولد ﴿ قرة عين لي ولك لا تقتلوه ﴾ أي: أبقه لنا، لتقر به أعيننا، ونستر به في حياتنا.

﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولدا لنا، ونكرمه، ونجله.

فقدر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبته حبا شديدا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى هذه المراجعات [ص ٦١٣] [والمقاولات] في شأن موسى: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ما جرى به القلم، ومضى

به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله، شأن آخر.
ولما فقدت **موسى أمه**، حزنت حزنا شديدا، وأصبح فؤادها فارغا من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.
﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي: بما في قلبها ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به. ﴿ لتكون ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿ من المؤمنين ﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك، على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه.
﴿ وقالت ﴾ أم **موسى** ﴿ لأخته قصيه ﴾ أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه] ﴿ فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.
وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله.
ومن لطف الله **بموسى وأمه**، أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال ﴿ فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾.
وهذا جل غرضهم، فإنهم أحبوه حبا شديدا، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتملة على الترغيب، في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.
﴿ فرددناه إلى أمه ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿ كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فإذا رأوا السبب متشوشا، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر **موسى عليه** الصلاة والسلام عند آل **فرعون**، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليها.
وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه **موسى من** الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أما، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله، صدقا وحقا.

(١) كذا في ب، وفي أ: نعاقبهما على خطئهما.". [١]

(١) تفسير السعدي ص/٦١٢

٣٨-"﴿ ولما بلغ أشده ﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿ واستوى ﴾ كملت فيه تلك الأمور ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ أي: حكما يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلما كثيرا.

﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ في عبادة الله المحسنين لخلق الله، نعطيهم علما وحكما بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار.

﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿ هذا من شيعته ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾ القبط.

﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثته لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغا يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان.

﴿ فوكزه موسى ﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثة الإسرائيلي، ﴿ فقضى عليه ﴾ أي: أماته من تلك الوكزة، لشدتها وقوة موسى.

فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ أي: من تزيينه ووسوسته، ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ خصوصا للمخبتين، المبادرين للإنابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

ف ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ رب بما أنعمت علي ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة، ﴿ فلن أكون ظهيرا ﴾ أي: معينا ومساعدا ﴿ للمجرمين ﴾ أي: لا أعين أحدا على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منة الله عليه، أن لا يعين مجرما، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير، وترك الشر.

﴿ ف ﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿ أصبح في المدينة خائفا يترقب ﴾ [ص ٦١٤] هل يشعر به آل فرعون، أم لا؟ وإنما خاف، لأنه قد علم، أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل.

فبينما هو على تلك الحال ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس ﴾ على عدوه ﴿ يستصرخه ﴾ على قبطي آخر. ﴿ قال له موسى ﴾ موبخا له على حاله ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ أي: بين الغواية، ظاهر الجراءة.

﴿ فلما أن أراد أن يبطش ﴾ موسى ﴿ بالذي هو عدو لهما ﴾ أي: له وللمخاصم المستصرخ، أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي، ﴿ قال ﴾ له القبطي زاجرا له عن قتله: ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض ﴾ لأن من أعظم آثار الجبار في الأرض، قتل النفس بغير حق.

﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ وإلا فلو أردت الإصلاح لحلت بيني وبينه من غير قتل أحد، فانكف موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره، وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين، حتى تراود ملأ فرعون، وفرعون على

قتله، وتشاوروا على ذلك.

وقيض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم. فقال: ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ أي: ركضا على قدميه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به، قبل أن يشعر، فـ ﴿ قال يا موسى إن الملأ يأتمرون ﴾ أي: يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ عن المدينة ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ فامتثل نصحه.

﴿ فخرج منها خائفا يترقب ﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله، و ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه وفعله غضبا من غير قصد منه للقتل، فتوعدهم له ظلم منهم وجراءة.". (١)

٣٩-"﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ أي: قاصدا بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك لفرعون، ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق، فهداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿ ووجد من دونهم ﴾ أي: دون تلك الأمة ﴿ امرأتين تذودان ﴾ غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿ قال ﴾ لهما موسى ﴿ ما خطبكما ﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة، ﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة، نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

فرق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿ فسقى لهما ﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ مستريحا لذلك الظلال بعد التعب.

﴿ فقال ﴾ في تلك الحالة، مسترزقا ربه ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيا ربه متملقا. وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى.

فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿ تمشي على استحياء ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصا في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام، لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحى منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه، فـ ﴿ قالت ﴾ له: ﴿ إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ أي: لا ليمن عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك،

---

(١) تفسير السعدي ص/٦١٣

فأجابها موسى.

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿ قال ﴾ مسكنا روعه، جابرا قلبه: ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿ قالت إحداهما ﴾ أي: إحدى ابنتيه ﴿ يا أبت استأجره ﴾ أي: اجعله أجيرا عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما، أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند [ص ٦١٥] السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى.

﴿ قال ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ﴾ أي تصير أجيرا عندي ﴿ ثماني حجج ﴾ أي: ثماني سنين. ﴿ فإن أتممت عشرا فمن عندك ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك. ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالا شاقة، وإنما استأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

ف ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام -مجيبا له فيما طلبه منه-: ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك. ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا، قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيبا عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟

وأيضا، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟" ولو كان ذلك الرجل شعيبا، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضا فإن شعيبا عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب، ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، [إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم] (١)

(١) زيادة من هامش: ب.". (١)

٤٠-"﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه، اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته، ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه. ﴿ سار بأهله ﴾ قاصدا مصر، ﴿ آنس ﴾ أي: أبصر ﴿ من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

﴿ ٣٠ ﴾ فلما أتاها نودي ﴿ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ فأخبر بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن يأمره بعبادته، وتألهه، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾.

﴿ وأن ألق عصاك ﴾ فألقاها ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ تسعى سعيا شديدا، ولها سورة مهيلة ﴿كأنها جان ﴾ ذكر الحيات العظيم، ﴿ ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ أي: يرجع، لاستيلاء الروع على قلبه، فقال الله له: ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿ أقبل ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل في الأمر المخوف، فقال: ﴿ ولا تخف ﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال : ﴿ إنك من الآمنين ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنا، واثقا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية، أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون (١) أجرأ له، وأقوى وأصلب.

ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿ اسلك يدك ﴾ أي: أدخلها ﴿ في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ فسلكها وأخرجها، كما ذكر الله تعالى.

﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ أي ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف. ﴿ فذانك ﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿ برهانان من ربك ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله، ﴿ إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت.

ف ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام.

[ص ٦١٦]

معتذرا من ربه، وسائلا له المعونة على ما حمله، وذاكرا له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها. ﴿ رب إني قتلت منهم نفسا ﴾ أي: ﴿ فأخاف أن يقتلون * وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا ﴾ أي: معاونا ومساعدا ﴿

(١) تفسير السعدي ص/٦١٤

يصدقني ﴾ فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق فأجابه الله إلى سؤاله فقال: ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ أي: نعاونك به ونقويك.

ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿ ونجعل لكما سلطانا ﴾ أي: تسلطا، وتمكنا من الدعوة، بالحجة، والهيبة الإلهية من عدوهما لهما، ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم، كيد عدوكم (٢) وصارت لكم أبلغ من الجنود، أولي العدد والعدد.

﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده، بعد ما كان شريدا، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه، الغلبة والظهور.

---

(١) كذا في ب، وفي أ: ليكون.

(٢) كذا في ب، وفي أ: عنكم كيد عدوهم.". [١]

٤١-"فذهب موسى برسالة ربه ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء. ﴿ قالوا ﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد ﴿ ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعل على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا وقد علم ﴿ ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض ﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿ وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾.

﴿ وقال موسى ﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ أي: إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأبيتم إلا التمادي في غيكم واللجاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك، الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿ وقال فرعون ﴾ متجرئا على ربه، ومموها على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ أي: أنا وحدي، إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري، لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون!، حيث

---

(١) تفسير السعدي ص/٦١٥

لم يقل " ما لكم من إله غيري " بل تورع وقال: ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وهذا، لأنه عندهم، العالم الفاضل، الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة، التي قد تحتمل أن ثم إلها غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ " هامان " ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ ليجعل له لبنا من فخار. ﴿ فاجعل لي صرحا ﴾ أي: بناء ﴿ لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب، ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشئونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال تعالى: ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاءوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ فلذلك (١) تجرأوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿ فأخذناه وجنوده ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿ فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ [ص ٦١٧] كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ أي جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدي بهم ويمشي خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله، من ولي ولا نصير.

﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ﴾ أي: وأتبعناهم، زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة، يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ وهو التوراة ﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿ بصائر للناس ﴾ أي: كتاب الله، الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم، وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿ وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول، طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال:

(١)كذا في ب، وفي أ: فكذلك.". (١)

٤٢-"﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئا فشيئا، رحمة بهم ولطفا ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقا رحمة بهم، فلم اعترضوا على ما هو من مصالحهم؟ فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص، لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمرا هيأ أسبابه، وأتى بها شيئا فشيئا بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها [ولا دنياها] (١) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى، وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سرورا أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شرا أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهم البليغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تطمئن به نفسها، وتقر به عينها، وتزداد به غبطة وسرورا.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص. وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله، عند المقلقات، كما قال تعالى. ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه، وانزعاجه، فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد -ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه- فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي [ص ٦١٩] أمر بها، ولا يكون ذلك منافيا لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

(١) تفسير السعدي ص/٦١٦

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال، من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف، لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عد قتله القبطي الكافر ذنبا، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي ﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمة -بل قد يكون واجبا- كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحا له ومحذرا.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تزاحم المفسدتين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما أنه يرتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب (٢) إلى بعض البلدان البعيدة، التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق: الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالما لها، لأنه تعالى، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾.

ومنها أن الحياء -خصوصا من الكرام- من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده، العرف.

ومنها أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعا.

ومنها أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره، لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل [يعمل] للإنسان، أن يكون قويا أمينا.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يحسن خلقه لأجيره، وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿ وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد لقوله: ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماما في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماما في الخير هاديا مهديا.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث أخبر بذلك تفصيلا مطابقا، وتأصيلا موافقا، قصه قصا، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئا من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوما جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على من مجرد خبره ينبئ أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به، وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة، التي لا تناسب، ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ [ص ٦٢٠] الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة، والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكايد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نموا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورا، وكل وقت من الأوقات، يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

---

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويذهب". (١)

---

(١) تفسير السعدي ص/٦١٨

٤٣-"﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة] ﴿ وما كانوا سابقين ﴾ الله، ولا فائتين، بل سلموا واستسلموا.

﴿ فكلا ﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿ أخذنا بذنبه ﴾ على قدره، وبعقوبة مناسبة له، ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ أي: عذابا يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾

﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ كقوم صالح، ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ كقارون، ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿ وما كان الله ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ منعوها حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.". (١)

٤٤-"﴿ ٣٢ - ٣٤ ﴾ ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ يا نساء النبي ﴾ خطاب لهن كلهن ﴿ لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ﴾ الله، فإنكن بذلك، تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكملن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها.

فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فتلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿ الذي في قلبه مرض ﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه، لأن قلبه غير صحيح [فإن القلب [ص ٦٦٤] الصحيح] (١) ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه، وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل، لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول، واللين فيه،

---

(١) تفسير السعدي ص/٦٣١

في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ أي: غير غليظ، ولا جاف كما أنه ليس بلين خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ ولم يقل: ﴿ فلا تلن بالقول ﴾ وذلك لأن المنهي عنه، القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع، هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاما لينا، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا، لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ وقال لموسى وهارون: ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾

ودل قوله: ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم، والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد، إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش (٢) لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليعرف أن ذلك مرض.

فليجتهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكن، ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

ولما أمرهن بالتقوى عموما، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [الحاجة] (٣) النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصا الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما، ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة، الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة، الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموما، فقال: ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر، أمرا به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿ إنما يريد الله ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما (٤) نهاكن عنه، ﴿ ليذهب عنكم الرجس ﴾ أي: الأذى، والشر، والخبث، يا ﴿ أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

أي: فاحمدوا ربكم، واشكروه على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها، وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجا ولا مشقة، بل لتتزكى نفوسكم، ولتتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل، الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن. والحكمة، أسراره. وسنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكر فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ يدرك أسرار (٥) الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر.

فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

(١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبته.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: عما.

(٥) في ب: سرائر.". (١)

٤٥-"﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم الذي تبين ظلمه، بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسنا وظالما، والله أعلم.

[ص ٧٠٧]

﴿ ١١٤ - ١٢٢ ﴾ ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ﴾ إلى آخر القصة.

يذكر تعالى منته على عبديه ورسوليه، موسى، وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما دينا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكه.

﴿ وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون ﴾ أي: أبقى عليهما ثناء حسنا، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾". (٢)

٤٦-"﴿ ٢٣ - ٤٦ ﴾ ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ إلى آخر القصة.

أي: ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿ موسى ﴾ ابن عمران، ﴿ بآياتنا ﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقية ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿ وسلطان مبين ﴾ أي: حجة بينة، تتسلط على القلوب فتذعن لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق. والمبعوث إليهم ﴿ فرعون ﴾ وهامان ﴿ وزيره ﴾ وقارون ﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه

(١) تفسير السعدي ص/٦٦٣

(٢) تفسير السعدي ص/٧٠٦

أشد الرد ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقووا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

(١) وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل ﴿ وما كيدهم إلا في ضلال ﴾. بل قال: ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ .

---

(١) في هامش الأصل (قاعدة)." (١)

٤٧-"﴿ وقال فرعون ﴾ متكبرا متجبرا مغررا لقومه السفهاء: ﴿ ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ أي: زعم -قبحه الله- أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ الذي أنتم عليه ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾

﴿ وقال موسى ﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعينا بربه: ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريبا في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيرا عندهم، موافقا لهم على دينهم، ولو كان مسلما لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحا فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٣٦

﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضا قولا مجردا عن البينات، ولهذا قال: ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارا علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه، [ص ٧٣٧] فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي حالة قدرت، فقال: ﴿ وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾

أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبا فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذابا في الدنيا وعذابا في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرا بين تينك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كذاب ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفا ولا كاذبا، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ﴾ أي: في الدنيا ﴿ ظاهرين في الأرض ﴾ على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله ﴾ أي: عذابه ﴿ إن جاءنا ﴾ ؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركا بينه وبينهم بقوله: ﴿ فمن ينصرنا ﴾ وقوله: ﴿ إن جاءنا ﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف ﴿ قال فرعون ﴾ معارضا له في ذلك، ومغررا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ وصدق في قوله: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ ولكن ما الذي رأى؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنا له.

وكذب في قوله: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعا مجردا على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

﴿ وقال الذي آمن ﴾ مكررا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى

ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة فقال لهم: ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: ﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ﴾ إلى آخر الآيات.

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ وحين ينادي أهل النار مالكا ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ فيقول: ﴿ إنكم ماكثون ﴾ وحين ينادون ربهم: ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فيجيبهم: ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ وحين يقال للمشركين: ﴿ ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾

فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿ يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته.". (١)

٤٨-"﴿ ولقد جاءكم يوسف ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿ من قبل ﴾ إتيان **موسى بالبينات** الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به ﴾ [ص ٧٣٨] في حياته ﴿ حتى إذا هلك ﴾ ازداد شككم وشرككم، و ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به **موسى ظلما** وعلوا، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿ بغير سلطان أتاهم ﴾ أي: بغير

(١) تفسير السعدي ص/٧٣٦

حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا ﴿كبر ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿ مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ فالله أشد بغضا لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه، ﴿كذلك ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل **فرعون** ﴿ يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿ وقال **فرعون** ﴾ معارضا **لموسى ومكذبا** له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿ يا هامان ابن لي صرحا ﴾ أي: بناء عظيما مرتفعا، والقصد منه لعلي أطلع ﴿ إلى إله **موسى وإني** لأظنه كاذبا ﴾ في دعواه أن لنا ربا، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط **فرعون**، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿ وكذلك زين **لفرعون** سوء عمله ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿ وصد عن السبيل ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿ وما كيد **فرعون** ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن **موسى مبطل** ﴿ إلا في تباب ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ وقال الذي آمن ﴾ معيدا نصيحته لقومه: ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما يقول لكم **فرعون**، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلا ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها.

﴿ من عمل سيئة ﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿ فلا يجزى إلا مثلها ﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿ فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.". [١]

٤٩-"﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة ﴾ بما قلت لكم ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾ بترك اتباع نبي الله **موسى عليه** السلام.

ثم فسر ذلك فقال: ﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٣٧

الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. ﴿ الغفار ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿ لا جرم ﴾ أي: حقا يقينا ﴿ أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه، في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعا [ص ٧٣٩] ولا ضرا ولا موتا ولا حياة، ولا نشورا.

﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ تعالى فسيجازي كل عامل بعمله. ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ (١) على ربهم بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم:

﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿ وأفوض أمري إلى الله ﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم علي، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أي: وقى الله القوي الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيدا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

---

(١) في النسختين (بالتجري)." (١)

٥٠-"﴿ ٥٣ - ٥٥ ﴾ ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب * هدى وذكرى لأولي الألباب * فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ .

لما ذكر [ص ٧٤٠] ما جرى لموسى وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٣٨

النار، ذكر أنه أعطى **موسى** ﴿ الهدى ﴾ أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به المهتدون. ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾ أي: جعلناه متوارثا بينهم، من قرن إلى آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل على الهدى الذي هو: العلم بالأحكام الشرعية وغيرها، وعلى التذكر للخير بالترغيب فيه، وعن الشر بالترهيب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿ لأولي الألباب ﴾

﴿ فاصبر ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين. ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أي: ليس مشكوكا فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدى الصرف، الذي يصبر عليه الصابرون، ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: ﴿ إن وعد الله حق ﴾ من الأسباب التي تحث على الصبر على طاعة الله وعن ما يكره الله.

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصا ﴿ بالعشي والإبكار ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما، لأن في ذلك عونا على جميع الأمور.". (١)

٥١-"﴿ ٤٦-٥٦ ﴾ ﴿ ولقد أرسلنا **موسى بآياتنا** إلى **فرعون** وملئه ﴾ . إلى آخر القصة. (١)

لما قال تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ بين تعالى حال **موسى ودعوته**، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع **فرعون**، فقال: ﴿ ولقد أرسلنا **موسى بآياتنا** ﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات.

﴿ إلى **فرعون** وملئه فقال إني رسول رب العالمين ﴾ فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ أي: ردوها وأنكروها، واستهزأوا بها، ظلما وعلوا، فلم يكن لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها، ولهذا قال:

---

(١) وفي [ب]: ذكر الآيات إلى آخرها.". (٢)

٥٢-"﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾

أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إلى الإسلام، ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم.

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٣٩

(٢) تفسير السعدي ص/٧٦٧

﴿ وقالوا ﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿ يا أيها الساحر ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أي: بما خصك الله به، وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنا العذاب ﴿ إننا لمهتدون ﴾ إن كشف الله عنا ذلك.

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾

﴿ ونادى فرعون في قومه قال ﴾ مستعليا بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿ يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾ أي: ألست المالك لذلك، المتصرف فيه، ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين. ﴿ أفلا تبصرون ﴾ هذا الملك الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ يعني -قبحه الله- بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجيه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحتقر، فأينا خير؟ ﴿ و ﴾ مع هذا ف ﴿ لا يكاد يبين ﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقيلا عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ أي: فهلا كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزينا مجملا بالحلي والأساور؟ ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلا على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

فأي دليل يدل على أن فرعون محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟

وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملأ لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل. ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ فبسبب فسقهم، قيض لهم [ص ٧٦٨] فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

﴿ فلما آسفونا ﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿ انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.". (١)

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٦٧

٥٣-"﴿ ١-١٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ .

هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله ﴿ في ليلة مباركة ﴾ أي: كثيرة الخير والبركة وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام لينذر به قوما عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي ولهذا قال: ﴿ إنا كنا منذرين فيها ﴾ أي: في تلك الليل الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿ يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي: يفصل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان، [ص ٧٧٢] الذي يكون في ليلة القدر أحد (١) الكتابات التي تكتب وتميز فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا وكل به كراما كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه.

﴿ أمرا من عندنا ﴾ أي: هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا.

﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ للرسل ومنزلين للكتب والرسل تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره، ﴿ رحمة من ربك ﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه، ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي: يسمع جميع الأصوات ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه فرحمهم بذلك ومن عليهم فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ أي: خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما شاء. ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي: عالمين بذلك علما مفيدا لليقين فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق ولهذا قال: ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿ يحيي ويميت ﴾ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي: رب الأولين والآخرين مربيهم بالنعم الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿ في شك يلعبون ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات غافلون عما خلقوا له قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

﴿ فارتقب ﴾ أي: انتظر فيهم العذاب فإنه قد قرب وآن أوانه، ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس ﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان ويقال لهم: ﴿ هذا عذاب أليم ﴾

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم.

ويؤيده أيضا أنه قال في هذه الآية: ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا على الحق فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف ﴾ فأرسل الله عليهم الجوع العظيم حتى أكلوا الميتات والعظام وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون –على هذا– قوله: ﴿ يوم تأتي السماء بدخان ﴾ أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم وما يشاهدون وليس بدخان حقيقة. ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم فدعا ربه فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنكم وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب وإخبار بوقوعه فوقع وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة بدر وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك أن ذلك من أشراط الساعة وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ أن هذا كله يكون يوم القيامة . [ص ٧٧٣]

وأن قوله تعالى ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك

بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة وهذا الذي يظهر عندي ويترجح والله أعلم

﴿ ١٧–٣٣ ﴾ ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ إلى آخر القصة.

(٢) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ذكر أن لهم سلفا من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه فقال: ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

﴿ أن أدوا إلي عباد الله ﴾ أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم.

وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حق فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي: رسول من رب العالمين أمين على ما أرسلني به لا أكتمكم منه شيئا ولا أزيد فيه ولا أنقص وهذا يوجب تمام الانقياد له.

(١) في النسختين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).

(٢) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة.". [١]

٥٤-"﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد الله، ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرات، فكذبوه وهموا بقتله فلجأ بالله من شرهم فقال: ﴿ وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ﴾ أي: تقتلوني أشر القتلات بالرجم بالحجارة.

﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي وهو مقصودي منكم فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة فاعتزلوني لا علي ولا لي، فاكفوني شركم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله محاربين لنبيه موسى عليه السلام غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل. ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ أي: قد أجرموا جرما يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلا وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه. ﴿ واترك البحر رهوا ﴾ أي: بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله ثم تبعهم فرعون فأمر الله موسى أن يضرب البحر فضربه فصار اثني عشر طريقا وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة فسلكه موسى وقومه.

فلما خرجوا منه أمره الله أن يتركه رهوا أي: بحاله ليسلكه فرعون وجنوده ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم ولهذا قال: ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها ﴾ أي هذه النعمة المذكورة ﴿ قوما آخرين ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي لما أتلفهم الله وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض أي لم يحزن عليهم ولم يؤس على فراقهم بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم حتى السماء والأرض لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين

﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي ممهلين عن العقوبة بل اصطلمتهم في الحال ثم امتن تعالى على بني إسرائيل فقال ﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾ الذي كانوا فيه ﴿ من فرعون ﴾ إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿ إنه كان عاليا ﴾ أي مستكبرا في الأرض بغير الحق ﴿ من المسرفين ﴾ المتجاوزين لحدود الله المتجرئين على محارمه

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿ على علم ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿ على العالمين ﴾ أي

(١) تفسير السعدي ص/٧٧١

عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ففضلوا العالمين كلهم وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم

﴿ وآتيناهم ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ من الآيات ﴾ الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ أي [ص ٧٧٤] إحسان كثير ظاهر منا عليهم وحجة عليهم على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام". (١)

٥٥-"﴿ ٣٨-٤٠ ﴾ ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون * فأخذناه وجنوده فنبذناه في اليم وهو مليم ﴾ .

أي: ﴿ وفي موسى ﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه، بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى (١) بذلك السلطان المبين، فتولى فرعون ﴿ بركنه ﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح فقالوا: ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ أي: إن موسى، لا يخلو، إما أن يكون ساحرا وما أتى به شعبذة (٢) ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونا، لا يؤخذ بما صدر منه، لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصا فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم [ظلما وعلوا] ﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض [بصائر ﴾ الآية]، ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ﴾ أي: مذنب طاغ، عات على الله، فأخذه عزيز مقتدر.

---

(١) كذا في ب، مصححة في الهامش وفي أ: فلما أتي فرعون.

(٢) في ب: إما أن يكون ما أتي به سحرا وشعبذة.". (٢)

٥٦-"﴿ ٤١-٥٥ ﴾ ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر *كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر * إن المجرمين في ضلال وسعر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

أي: ﴿ ولقد جاء آل فرعون ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿ النذر ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرات (١) وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحدا غيرهم (٢) فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده (٣) والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس و] المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٧٣

(٢) تفسير السعدي ص/٨١١

ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيرا منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرا منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهدا وميثاقا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلا وشرعا، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها،

فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ قال تعالى مبينا لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من (٤) صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به (٥) ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ أي: [ص ٨٢٨] أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال (٦) .

﴿ إن المجرمين ﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿ في ضلال وسعر ﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم:

﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها (٧) .

وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال:

---

(١) في ب: بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات.

(٢) في ب: ما لم يشهد غيرهم

(٣) في ب: فأغرقه وجنوده في اليم.

(٤) في ب: وقتلت.

(٥) في ب: فأذلوا.

(٦) في ب: في الخيال.

(٧) في ب: خلقه.". (١)

٥٧-"﴿ ٩ - ١٢ ﴾ ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية * إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ .

أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة كفرعون مصر الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام وأراه من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق ولكن جحدوا وكفروا ظلما وعلوا وجاء من قبله من المكذبين، ﴿ والمؤتفكات ﴾ أي: قرى قوم لوط الجميع جاءوا ﴿ بالخاطئة ﴾ أي: بالفعلة الطاغية وهي (١) الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٢) والفسوق.

﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذب (٣) الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع ﴿ أخذة رابية ﴾ أي: زائدة على الحد والمقدار الذي يحصل به هلاكهم.

ومن جملة أولئك قوم نوح أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجه] الأرض وعلا على مواضعها الرفيعة.وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿ في الجارية ﴾ وهي: السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم الله.

فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم [ص ٨٨٣] حين أهلك الطاغين واعتبروا بآياته الدالة على توحيده ولهذا قال: ﴿ لنجعلها ﴾ أي: الجارية والمراد جنسها، ﴿ لكم تذكرة ﴾ تذكركم أول سفينة صنعت وما قصتها وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله وأهلك أهل الأرض كلهم فإن جنس الشيء مذكر بأصله.

وقوله: ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أي: تعقلها أولو الألباب ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهل البلادة وعدم الفطنة فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله (٤)

---

(١) في ب: هو.

(٢) في ب: المعاصي.

(٣) في ب: كذبوا.

(٤) في ب: وتفكرهم بآياته.". (٢)

٥٨-"﴿ ١٥ - ١٦ ﴾ ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴾ .

---

(١) تفسير السعدي ص/٨٢٧

(٢) تفسير السعدي ص/٨٨٢

يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، [ص ٨٩٤] فأخذه الله أخذا وبيلا أي: شديدا بليغا.". [١]

٥٩-"﴿ إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

﴿ إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء (١) فقال له ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف، لعله ﴿ يتذكر أو يخشى ﴾

﴿ فقل ﴾ له: ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه. ﴿ فتخشى ﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾

﴿ فكذب ﴾ بالحق ﴿ وعصى ﴾ الأمر، ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته، ﴿ فحشر ﴾ جنوده أي: جمعهم ﴿ فنادى فقال ﴾ لهم: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم، ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أي: صارت عقوبته (٢) دليلا وزاجرا، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ فإن من يخشى الله هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

---

(١) في ب: وابتعثه بالوحي واجتباه.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.". [٢]

---

(١) تفسير السعدي ص/٨٩٣

(٢) تفسير السعدي ص/٩٠٩